المصدر: اكتوبر
التاريخ: ١٩٨١/١٢/٢٧

السادات: شخصية أخرى

أنيس منصور

أى إنسان هو ثلاثة أشخاص:

أنت كما ترى نفسك..

أنت كما يراك الناس

وأنت كما تحب أن تكون

وقد أسيء فهم الرئيس السادات كثيرا. فهو قادر على أن يمزج هذه الصور بعضها ببعض وقادر أيضا على إخفائها تماما. فهو مثل كل أبناء الريف بسيط وصبور وقادر على إخفاء ما يريد. ويسرف في ذلك. بل إنه يقول كل شيء حتى يخيل إليك أنه لم يعد لديه شيء. ويخفي كل شيء حتى تتصور أنه لا يريد أن يقول شيئا.

وربما كان إحساسه الصحفي هو الذي جعله يمسك عن الإعلان عن أخبار كثيرة لديه. وسبب ذلك أنه يعرف ما الذي يعجب الصحفيين. إنهم يحتاجون إلى الشيء الجديد المثير. فهو عندما يتحدث إلى الصحفيين يتخيل ما الذي يريدون أن يكتبوه. ولذلك يحاول أن يدلي بحديث صحفي دون أن يضع فيه قنبلة تنفجر غدا أو تنفجر على مراحل.

وأول ما يلاحظ على الرئيس السادات هذه البساطة أو هذه التلقائية في الحديث. ويكون انطباعك عنه أنه رجل فطري، ريفي. فهو يضع على لسانه ما يخفيه في قلبه. ولكن ليس هذا صحيحا تماما. فكثيرا ما أخفى شيئا وأخفى أشياء كثيرة.

ولم يحدث أن عرفت مصر زعيما سياسيا أساء الناس فهمه ، كما حدث لأنور السادات . فى عصر الرئيس جمال عبد الناصر كان السادات فى الظل . وكان بعيدا . ولم يكن له دور معروف لنا . وقد سألت الرئيس السادات فى واقعة سمعتها ، ولم أتحقق من صحتها ، نقلا عن الأستاذ مصطفى أمين . سألته إن كان صحيحا أن جمال عبد الناصر قد شكا من أنه لا يحضر الاجتماعات ولا يشارك فى المواقف الحرجة . وأنه فى كل مرة يستدعيه لحضور الاجتماعات يعلن أنه مريض أو يتمارض . . وأن الأستاذ مصطفى أمين قد حدثه فى ذلك ، ونقل إليه ما يقوله جمال عبد الناصر ، فأكد لى الرئيس السادات أن هذا صحيح . أما السبب الذى قاله لمصطفى أمين فهو : أن هذه الثورة هى ثورة جمال عبد الناصر ، وأن كل من يحاول أن يرفع رأسه فسوف يطيح به . . ولذلك قررت أن أبتعد !

وضحكت جدا . ولما سألنى الرئيس السادات عن السبب قلت : ممكن أن أقولها بشكل آخر يا سيادة الرئيس . .

فسألنى : قصدك هذا المعنى ؟ .

قلت : نعم لو أذنت لى . . إن جمال عبد الناصر مثل الكماشة . . وسوف يقتلع كل مسمار له رأس . . والذى يريد أن يبقى طويلا يجب أن يكون بلا رأس ليظل غائرًا فى الخشب . . وتكون القاعدة : يعيش أطول من كان بلا رأس ! . .

وضحك الرئيس السادات قائلا : المعنى هكذا أوقع وأوجع ! .

وسألت الرئيس السادات إن كان صحيحا ما يقال من انه ليس مصابا بالقلب ، إنما هو يعلن ذلك من حين إلى حين ليهرب من المواقف التى تجعله يصطدم بعبد الناصر .

قال : إن جمال عبد الناصر نفسه قد تصور ذلك . وقد حدث أن كنت مريضا فى ميت أبو الكوم ، فأرسل لى طبيبا ليتأكد من ذلك . .

وسألت الرئيس السادات : وهل صحيح ما يقال من أنك فى جنازة الرئيس عبد الناصر تظاهرت بأزمة قلبية ، وكذلك ، فعل السيد على صبرى ، ولم تكن هناك أزمة إنما كانت لديك معلومات مؤكدة عن أن محاولة لاغتيالك قد دبرت أثناء هذه الجنازة ؟ . .

فضحك الرئيس السادات قائلا : يا باى . . إن أحدا لا يصدق أحدا . . أعوذ بالله ! .

ولم يثبت ولم ينف هذه الواقعة . .

وعدت أسأله مرة أخرى : ويقال أيضا إنك أفلحت فى إقناع الرئيس عبد الناصر بأنه لا خطر لك ولا خوف منك على عبد الناصر . ولذلك طال جودك إلى جواره . فاستراح جمال عبد الناصر إليك

ثم إنك ذهبت إلى أبعد من إقناعه بأنك رجل مريض ، إلى أن أوصيت عبد الناصر على أولادك ، لأنك سوف تموت قبله . . فلم يعد لديه خوف أو قلق . . وهكذا طال عمرك السياسى ! . .

فضحك الرئيس السادات ، ولم يعلق بشىء . .

وسألته : إن كان صحيحا أن جمال عبد الناصر قال : إنك سوف تدفن جميع أعضاء مجلس

الثورة . . لأنك مهتم بصحتك ولا تقلق خاطرك بكل مشاكل مصر . .

وضحك الرئيس السادات : أعرف أنه قال ذلك . ولكن الأعمار بيد الله !

وأذكر أننى نشرت سلسلة من المقالات فى أخبار اليوم بعنوان « وكانت الصحة هى الثمن » . وموضوعها أمراض العظماء . وكانت الحلقة الأولى عن المرض الذى أدى إلى وفاة جمال عبد الناصر . والمرض اسمه مرض بيرجر . وتعريفه فى القاموس الطبى : أنه مرض اليهود . فقد ظهر لأول مرة على يهود نيويورك الذين يعملون بسوق الأوراق المالية ، فهم عصبيون ومسرفون فى التدخين وأكثرهم مصاب بالسكر .

واتصل بى السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية ، وطلب منى أن ألتقى به فى بيته . وقال : إن مقالك الأخير قد فهمه على صبرى وسامى شرف وصلاح نصر على أنك تسخر من على صبرى ، وبعضهم هاجمك ، وقال إنك عندما كنت طالبا فى المنصورة الثانوية لم تشترك فى مظاهرات الطلبة . إنما كنت تلميذا وبس . . فحاول أن تصحح موقفك فى المقال التالى .

وشكرت السيد حسين الشافعى على نصيحته الطيبة . . وفى المقال التالى وضحت المعنى ، وعرفت أن السيد على صبرى وبقية اللجنة التنفيذية العليا لم تقتنع بهذا التوضيح ، ورأوا أننى عرضت وجهة نظر الرئيس أنور السادات .

ولم أكن قد عرفت الرئيس السادات . إنما قابلته مرة واحدة لمدة ساعة ، وذلك يوم كان مشرفا على مؤسسة « أخبار اليوم » .. وقد استدعانى وفاجأنى بسؤال غريب : ألا تريد أن تسافر إلى ألمانيا الشرقية ؟ .

فأدهشنى السؤال وقلت : أسافر إلى أى مكان . . ثم إننى لم أر إلا برلين الشرقية ! . .

فضحك الرئيس السادات . وفوجئت به يضحك ، بل أنا مفاجأ به من أوله لآخره . . ولما ظهر على وجهى أننى لم أفهم قال : كلمنى « محمد » وقال لى الآن إنك تصف الأهرام بأنه ألمانيا الغربية ، وأخبار اليوم بأنها ألمانيا الشرقية !

أما محمد هذا فهو الأستاذ محمد حسنين هيكل . وكنت قد قلت له إن « أخبار اليوم » التى كان يشرف عليها الشيوعيون ، قد أصبحت مثل ألمانيا الشرقية . .

وكنت قد قلت للأستاذ هيكل أيضا : إن أخبار اليوم قد تعاقب عليها رؤساء مجالس إدارة كثيرون . فهى لم تعرف الاستقرار الذى عرفته الأهرام برياسة هيكل ، واقترحت على الأستاذ هيكل أن تعلق على باب أخبار اليوم .. لافتة مكتوبة عليها الآية القرآنية الكريمة التى تصف جهنم : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » أو تعلق العبارة التى كتبها الشاعر الإيطالى دانتى على باب جهنم : « أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة » ! .

وكان الأستاذ هيكل قد نقل للرئيس السادات كل هذه العبارات .

ثم التقيت بالرئيس السادات مرة أخرى . . وطلب منى أن أكتب صفحة أدبية فى « الأخبار » . ثم كان لطيفا مجاملا عندما قال لى إنه قرأ بعض كتبى وإنه قرأ كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » وتمنى هو الآخر أن يدور مثلى حول العالم . ولكنه لايعرف كيف ؟ .

وكان المشير عبد الحكيم عامر قد تمنى أن يعفى من كل مناصبه ، وأن يدور مثلى حول العالم ! . .

ولما سألت الرئيس السادات عن مقالى فى أخبار اليوم وعن مخاوف السيد حسين الشافعى قال : بل هناك ما هو أكثر من ذلك . فقد كان فى نية على صبرى أن يعتقلك بسبب هذا المقال . ولكنه عدل عن ذلك عندما كذب عليه أحد أصدقائك وقال له انك شيوعى ! أى أنه مقبول من أى شيوعى أن يشتمه ، وليس مقبولا من كاتب ليس شيوعيا أن يقترب منه . . ها ها . . ها ها ! . .

والرئيس السادات يرى نفسه بسيطا فى حياته وفى علاقاته مع الناس . ويرى أن البساطة هى أن يكون مع الناس . وأن يستمع إليهم . ولو كان للاستماع مسابقة لفاز الرئيس السادات بكبرى الجوائز ، فلديه هذه القدرة العجيبة على أن يستمع لأى أحد ولأى موضوع . ويخيل إلى من ينظر إلى عينى الرئيس السادات أنه لا يتابعه . لأن نظرات الرئيس السادات ليست مركزة . فهو لا يركزها فيمن يتحدث إليه . إنما هى ذات طابع شامل أو طابع كاسح ، فهو ينظر إليك وإلى كل ما حولك ومن حولك فى وقت واحد . وقد

وصفها عيزر فايتسمان فى مذكراته بأن نظرة الرئيس السادات : حادة قلقة عامة غير مريحة وغير مشجعة أيضا . ولذلك يصفه بعض المؤرخين السياسيين بأنه صاحب نظرة حالمة . وأنه هو من الساسة الحالمين ، أو أصحاب الرؤى والخيال والفلسفة . والسادات مؤمن بالعبارة التى قالها ماوتسى تونج : إنه لا ثورة بغير شعر – أى بغير فن وذوق وخيال وإبداع . .

والذى يرى الرئيس السادات بالجلباب والشبشب والعباءة يخيل إليه أنه وضع هذه الأشياء هكذا دون تفكير. أبدا . إنه يختار ملابسه جيدا . وهو يقول لخادمه : هات الجلباب الفلانى الموجود فى الدولاب بين البدلة الرمادى والبدلة الزرقاء .. وهات الشبشب البنى وليس الأسود لأن الأسود له أطراف حادة . . وهكذا . .

وكذلك يختار ملابسه ويطلب من الترزى التفصيلة التى تعجبه . ويعرف أماكن ملابسه تماما . وهو الذى اختار ملابس وتفصيلات الحرس الجمهورى وبدلة التشريفة العسكرية . .

وهو قادر على التحكم فى حياته تماما . فله برنامج يومى محدد . فهو يصحو فى ساعة محددة . ويمارس بعض الرياضة . ثم يقرأ الصحف ، ويبدأ نشاطه اليومى فى الساعة الحادية عشرة ، ويظل كذلك حتى الثالثة . وبعدها يمشى ساعة أو ساعة ونصفا . ثم يقوم ببعض الحركات الرياضية . ثم ينام ويصحو لتناول وجبته الوحيدة . وبعد ذلك يتلقى مكالمات تليفونية حتى يجىء موعد السينما . ويشاهد أحد الأفلام ،

ويفضل الأفلام العربية القديمة التى تعرض له الفارق الكبير بين مصر اليوم ومصر أمس . . أو يشاهد بعض الأفلام العسكرية التاريخية أو أفلام رعاة البقر . . أى أنه يرى الأفلام التى لا ترهقه عقليا . ولا يحب أن يكون آخر الأخبار على أعصابه شيئا يهمه ويغمه – أى يضاعف الهم والغم . وقد كان يأخذ على سلفه العظيم جمال عبد الناصر أنه كان يتلقى المكالمات التليفونية التى تحطم أعصابه . . قبل النوم وعندما يصحو من نومه . ولذلك أعجب أنور السادات كثيرا بعبارة جاءت فى مقدمة كتاب الزعيم العمالى هارولد ويلسون عن « رياسة الوزراء » . . قال ويلسون : إن رئيس الوزراء يجب أن يتحلى بصفتين . الأولى : الإحساس العميق بالتاريخ ، والثانية : النوم العميق أيضا . بغير التاريخ فإنه لا يستفيد من تجارب الآخرين ، وبغير النوم فانه لا يصبح قادرا على الفهم والتحليل واتخاذ القرار

ولذلك كان الرئيس السادات يتباهى بأنه الرئيس الوحيد الذى لا يتعاطى المنومات ، دليلا على راحته النفسية ، تماما مثل عمر بن الخطاب الذى حكم فعدل فأمن فنام – ومثل عمر بن الخطاب مات قتيلا ! .

وكان يعيب على جمال عبد الناصر كثرة التليفونات على مكتبه وإلى جوار فراشه وكذلك وجود الراديو المفتوح على نشرات الأخبار . . ولكن الرئيس السادات فعل نفس الشىء أخيرا . . ! !

ومنذ طفولته كان الرئيس السادات يرى أنه سوف يكون شيئا هاما . فكان يقارن نفسه بالزعيم الهندى

غاندى . وكان يمسك الماعز ويمشى بها فى شوارع قرية ميت أبو الكوم . وكان يعجب بكمال أتاتورك الذى أنعش آمال الشعوب الإسلامية فى النهضة والاتجاه إلى الغرب . . وكان يتخيل نفسه هتلر أيضا . وقد أعرب عن إعجابه بهتلر فى خطاب بعث به لصحيفة واشنطون بوست . وأعاد نشره الكاتب اليهودى سول بيلو الحائز على جائزة نوبل فى الأدب ، فى كتابه « القدس - ذهابا وإيابا » .

وفى التسجيل الذى أجرته إحدى محطات التليفزيون الأمريكى مع الصحفى البريطانى دافيد هيرست ، وأثار غضب الرئيس السادات فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى ميت أبو الكوم ، وطرد على أثره مندوب التليفزيون الأمريكى قال هيرست : إن الرئيس السادات لا يريد السلام حقا . إنه رجل مسرحى استعراضى نازى ومن أشد المعجبين بهتلر . . وله خطاب معروف .

ثم هاجمنى أنا أيضا فى نفس التسجيل ، وقال إننى قد هاجمت اليهود عموما . وإننى كاذب فى كل ما أكتبه عن السلام رغم أننى قد ذهبت إلى إسرائيل واستقبلونى بكل احترام . والدليل على كذبى وعلى أننى مضطر إلى الكلام عن السلام لأن هذه وجهة نظر الدولة ، أن كتبى التى شتمت فيها اليهود تباع فى مكتبات القاهرة . وأن طبعاتها تتجدد ، وأننى لم أغير فيها حرفا واحدا . وهى : الحائط والدموع ، ووجع فى قلب إسرائيل ، والصابرا . . وأننى وصفت هتلر بأنه عبقرى . .

وقد وضح الرئيس السادات موقفه من هتلر والنازية هذا فى المؤتمر الذى عقده لأساتذة جامعة الإسكندرية فقال إنه كان ضد الإنجليز. وهو صديق لكل من يعادى الإنجليز، سواء كانوا من الألمان النازيين أو الروس الشيوعيين. وإنه مثل تشرشل الذى أعلن فى الحرب العالمية الثانية أنه سوف يتحالف مع الشيطان ضد هتلر. وكان الشيطان هو ستالين!

ثم إنه معجب بالعسكرية البروسية، ومعجب بالانضباط والعبقرية الألمانية. ومن رأيه فى المستشار هيلموت شميت: أنه أمضى ٣ ساعات فى حوار معه هى أروع ساعات العمر.. فقد استمتع بالفكر اللامع والتجربة الحكيمة. لأن شميت نموذج للعقلية الألمانية فى أرفع درجاتها.

ويرى الرئيس السادات أنه صاحب رسالة وطنية قومية. ولما بادر بالسلام أحس العالم كله أنه صاحب رسالة إنسانية. ولذلك اتخذ الرئيس السادات أسلوبا دينيا فى الحديث عن السياسة، فاصطدم بالأفكار الدينية الأخرى المتطرفة. التى لا ترى أن السلام هو الهدف الدينى، إنما الهدف الدينى هو الحكم بكتاب الله وسنة رسوله وأن السادات مهما فعل من أجل مصر أو العرب أو تحقيق العدالة الاجتماعية أو نشر التسامح الدينى، فهو كافر لأنه لا يطبق كتاب الله، وهو فى ذلك مثل جمال عبد الناصر تماما. وإذا كان جمال عبد الناصر قد حبس الإخوان المسلمين وعذبهم وأعطاهم متسعا من الوقت فى السجون ليفكروا ويتحدوا عليه. فإن أنور السادات قد أطلق سراحهم. وكلاهما كافر. الأول كافر وقد ضيق على حريتهم والآخر كافر وقد أطلق سراحهم!

فالذى غرسه جمال عبد الناصر قد حصده السادات – أو ما بذره عبد الناصر قد حصد السادات – فهو قد عوقب على أخطاء جمال عبد الناصر !

وقد بالغ السادات فى تسامحه الدينى لدرجة أنه جعل رجال الدين المسلمين يضعون الحجر الأساسى للكنائس . وقرر إقامة مجمع للأديان فى سيناء : يتجاور فيه المسجد والكنيسة والمعبد – رغم الاعتراضات من كل الأديان على ذلك . ثم إنه اختار ساعات التأمل عند وادى الراحة ، يزوره كلما احتاج إلى ذلك !

والرئيس السادات يفضل الوحدة . . أى يفضل العزلة – أى أنه شعبى جماهيرى يتصل بالناس ويعيش بهم ومن أجلهم ، وفى نفس الوقت يفضل أن يكون بعيدا . ولذلك لا يبقى فى بيته إلا أياما قليلة جدا من كل سنة فى الشتاء يذهب إلى أسوان والقناطر واستراحة الهرم ، أو فى استراحة عثمان أحمد عثمان فى الحرانية ، وفى الصيف يسافر إلى المعمورة وكينج مريوط . وهو معذور فى ذلك فبيته فى الجيزة ضيق جدا ، وأصوات الطباخ والسفرجية ترن فى كل غرفه . كما إنه على مسافة قصيرة من السفارة السوفيتية التى تتصنت عليه . . ثم إن اعتبارات الأمن ترى ضرورة تنقله من مكان إلى مكان !

ومعروف عند الحراسة الخاصة للرئيس السادات أنه عندما ينتهى من رياضته اليومية يدخل إلى غرفته فلا يخرج إلا فى اليوم التالى . ويندهش الحراس وسكرتاريته الخاصة : كيف إنه هكذا لا يغير حياته ، ولا يضيق بها ، ولا يشعر بالملل ! . .

وهو يظل يشرب الشاى فى أكواب صغيرة طوال اليوم ويدخن البايب . . ثم يشرب كوبا من أملاح الفواكه قبل أن يقوم برياضة المشى . . عملا بنصيحة طبيب ألمانى ، فقد قال له إن هذه الأملاح تقضى على الحموضة وتساعد على إذابة الدهون أو الكولسترول فى الدم . . وهو ما يجب أن يتفاداه كل مصاب القلب ! . .

أذكر أن الرئيس السادات دعانى إلى العشاء فى الإسماعيلية . . وكنا ثلاثة : هو والمهندس عثمان أحمد عثمان وأنا . . وجاء الطعام ، وكان مكونا من صلطة وقطعة واحدة من اللحم ، وقطعة واحدة من الخبز وقطعة جبن ، وبرتقالة . هذا كل العشاء ، فقلت له : سيادة الرئيس هذه هى المكافأة التى ينالها رئيس جمهورية فى قمة كفاحه ؟ فقط هذا ؟ . .

وضحك مهدداً : إذا لم تسكت فسوف أجعلك تتعشى معى مرة أخرى ! . .

وكنت أقول للرئيس السادات : أنت تطلب إلى الناس الهدوء وضبط الأعصاب والصبر بينما تبدو عصبيا فى بعض خطبك ؟ . .

فكان يقول : لست عصبيا . ولكن الناس فى حاجة إلى أن أوقظهم أو أصدمهم حتى يفيقوا . .

وقد أطلقت عليه الصحف العالمية أنه صاحب الصدمات الكهربية فى علاج المشاكل الدولية – أى صاحب القرارات المفاجئة التى لا يتوقعها أحد مثل : القضاء على مراكز القوى ، وثورة مايو ، وطرد السوفيت ، وحرب أكتوبر ، وفتح القناة ، ومبادرة السلام .

واخيراً قراره بوضع كل المعارضين من الساسة والمتدينين فى سلة واحدة ؟ !

وهو مثل كل أبناء الريف يؤمن بالحسد . ويروى دائما حديثا يقول : اتقوا سم الأعين !

ويفسر هذا الحديث بأن عيون الناس تنظر فى صمت إلى كل ما فى يديك . أو حتى إلى مركزك وصحتك . وصمت العيون لا يدل إلا على أنها تطلق عليك أشعة الموت .

ولما سألت ما الذى يفعله الرئيس السادات ليتقى سم العيون . وجدته يوزع ملابسه وهداياه ، ويعطى لمن حوله ولكل من يقصده فى شىء . . بل إنه قد ساهم فى زفاف كريمات الضباط القدامى والوزراء . . بل فى علاج خصومه السياسيين

وسألت الرئيس : إن كان ارتداؤه الملابس الزرقاء والكحلية دائما بسبب خوفه من الحسد ؟ .

فضحك قائلا : ولكنها أنسب الألوان لذوى البشرة السمراء . .

وهى أنسبها للصور وشاشة التليفزيون أيضا .

وكان الرئيس السادات شديد الملاحظة . فكان يروى الأحداث هكذا : كان ذلك يوم الخميس ٤ مارس . . لا يوم الأربعاء ٥ مارس ، ظهرا ، وقابلت د . محمود فوزى . وكان يرتدى بدلة رمادية ، واندهشت أنه يرتدى جوربا أحمر اللون . . وسألته إن كان قد فوجىء بهذه الزيارة . فقال : نعم لقد كنت نائما ، وطلبت ألا يوقظنى أحد . . ولكن عندما عرفوا بقدومك أيقظونى بسرعة . ولكن لماذا يا سيادة الرئيس ؟

فضحك الرئيس السادات وقال : فقط لان جوربك أحمر . . ثم إن القميص قد سقط منه زرار . . ها ها . . ها ها !

وكنت فى بعض الأحيان أعود إلى الحاسب الالكترونى أراجع التواريخ التى يذكرها الرئيس السادات ، فأجدها صحيحة ، وكانت ذاكرته قوية – ذاكرة تصويرية وحسابية أيضا .

ولأنه حريص جدا على الذى يأكله ويشربه كان يقول : إننى فى كل مرة ألتقى بالرئيس تيتو أندهش كيف إنه يأكل الكافيار وهو ملىء بالكولسترول ، ثم يشرب الفودكا ويدخن السيجار . . وقد جاوز الثمانين . . لابد أن أعرف كيف يعيش هذا الرجل . . هذا عجيب !

وقد لاحظ الرئيس السادات أيضا أن السيد مناحم بيجين عندما تناول الغداء معه فى شرم الشيخ قد أكل كمية كبيرة من اللحم والخضراوات وقال : كيف يفعل ذلك وهو مصاب بالقلب . . ثم هذه الأعباء السياسية الضخمة والمناورات الحامية فى إسرائيل ؟ . . إن الأطباء يؤكدون أنه سوف يموت عند نهاية ١٩٨١ مع ملاحظة أن ثلاثة من أطبائه المعالجين قد ماتوا بالقلب !

ثم يضحك قائلا : الشىء الغريب حقا أن كل الصحفيين الإسرائيليين يسألونى وماذا يحدث للسلام بعدك ؟ . . أى بعد أن أموت . . ولا أحد يسألهم : وماذا يحدث لاتفاقية كامب دافيد . بعد أن يموت بيجين ؟

وعندما يتحدث الرئيس السادات عن « المخاض » فى الشرق الأوسط والتغييرات العميقة التى سوف

تقع ، كان على يقين من أن رءوسا سوف تطير فى سوريا والمغرب وليبيا والسعودية وأن الذى أصاب شاه ايران . لم يكن متوقعا تماما . إنما كان يتوقعه لأشخاص فى أماكن أخرى !

وكان الرئيس السادات يجد راحته فى الحديث إلى الناس . وتنهال عليه أفكاره وهو يتحدث . فهو محدث وليس كاتبا . ولذلك فهو يجلس تحت الأشجار وعلى الشواطىء . ويفضل الجلوس إلى المكتب وهو إذا تحدث فهو متدفق وشديد الحرارة والحماسة . . ومن الممكن أن يجرى أحاديث صحفية مختلفة عديدة الواحد وراء الآخر ، ومن الممكن أن يردد نفس الكلام بالعربية أو بالإنجليزية وبحرارة شديدة كأنه يتكلم فى ذلك لأول مرة . أذكر أننى أجريت معه حديثا وبعد مرور ساعة فتحت جهاز التسجيل فاكتشفت أنه لم يسجل شيئا . فما كان من الرئيس السادات إلا أن أعاد الحديث من أوله لآخره . . وبنفس الحرارة .

ومرة أخرى كنت أسجل معه حديثا فى حضور السيد حسنى مبارك نائب الرئيس والسيد ممدوح سالم رئيس الوزراء . وكان ذلك فى قصر عابدين . وتساءلت عن الفولت إن كان ٢٢٠ أو ١١٠ فجاء من يقول إنه فى هذه المنطقة ١١٠ – وعندما عدت إلى المكتب وجدت أن الحديث الذى استغرق ثلاث ساعات لم تسجل منه كلمة واحدة . وتوهمت أن السبب هو اختلاف الفولت ، مع أن جهاز التسجيل لا يحتاج إلا إلى تيار قوته خمسة فولتات فقط ! واتصلت بالرئيس

السادات تليفونيا فصرخ قائلا : لقد حدث هذا لأمينة السعيد . . أنا تعبان لا أستطيع أن أعيده . . اكتبه من الذاكرة وابعث به إلى لأراجعه . .

وبعثت به ، ولم يغير كلمة واحدة . وكتب الرئيس السادات هذه العبارة : أهنئك على قوة الذاكرة والدقة وجمال العبارة .

وفى يوم قرر الرئيس السادات أن يتفرغ تماما ليحكى لى قصة ثورة مايو . وجلست من الساعة الحادية عشرة صباحا حتى الثانية عشرة مساء . وامتلأت الشرائط التى أحضرتها . وذهبت سكرتارية الرئيس تشترى شرائط من جميع محلات الإسكندرية . وامتلأت الشرائط التى أتوا بها . فلم نجد إلا الشرائط التى سجلت عليها كريمات الرئيس بعض الأغنيات والموسيقى الهادئة التى يسمعها قبل النوم . وسجلنا على هذه الشرائط . .

وحاولت السيدة جيهان السادات أن تقنع الرئيس بأن يتوقف للراحة . ولكنه رفض ، وطلبت إليه أن يتناول بعض السندوتشات ، ولكنه رفض قائلا : ليس قبل أن أفرغ من هذا الحديث مرة واحدة . .

وفى الساعة الثانية عشرة مساء جلسنا نحن الثلاثة نتناول العشاء ، وكان الإرهاق باديا على الرئيس السادات ، ولكنه قال : الآن استرحت . فأنا عندما أنقل ما فى نفسى إلى الورق أو إلى الناس فهذه هى راحتى الكبرى !

وكان الرئيس السادات يحب أن يتصف الذين يتعاونون معه بالشجاعة والأمانة وكان يقول :

لا داعى للخوف مطلقا . مادام الإنسان أمينا ، فلا يهمه شيء . وإذا أخطأ فقد أخطأ بحسن نية . لأن الذى يعمل لابد أن يخطىء ولكن الذى يضايقنى هو هذا الخوف . لقد تصورت أننى قضيت على الخوف . وأن الشعور بالأمان هو الحالة النفسية والاجتماعية التى عند كل المصريين . ولكن بعض الوزراء يزعجوننى بخوفهم وترددهم فى اتخاذ القرار !

ولذلك فللرئيس السادات رأى محدد فى كل معاونيه ، استنادا إلى قاعدة الأمانة والشجاعة والحسم .

وفى غرفة نوم الرئيس السادات تتكدس بعض الكتب . وهذه الكتب تختفى ليظهر غيرها . وهو يقلب فيها . وكان اهتمامه فى الشهور الأخيرة بكتب الشريعة الإسلامية . وكان ينصح بقراءة بعض المؤلفين الذين استراح إلى اجتهادهم فى التشريع .

وهو الذى طلب منى أن أعيد طبع كتب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى . فقد لاحظ من مناقشاته مع الكثيرين أنهم لم يقرأوا تاريخ مصر . وهو يرى أن عبد الرحمن الرافعى أفضل المؤرخين – أى كان فاضلا ومنصفا . ولاحظ أن الشبان لا يقرأون تاريخ مصر . بل إنهم لا يعرفون كيف كانت مصر قبل الثورة . وما الذى تغير فى الناس وبينهم . ومادامت هذه حال الشبان ، فمن المؤكد أنهم لا يعرفون بالضبط ما الذى فعله جمال عبد الناصر ، ولا الذى فعله السادات . وكان يدرك تماما أن الناس لا تحب منه أن يكرر دائما ما فعلته الثورة وما فعله هو – ولكن الشعوب تنسى . وإذا كان الزعماء هم آباء الشعوب فالشعوب تضيق

بمن يحدثها بفضله عليها . . ويرون ذلك نوعا من المن . والزعيم مثل الأب ، يعرف ذلك ولكنه مضطر إليه . . لأنه يكره ألا يشعر ابنه بما فعله وضحى به من أجله . . ويكره أن يأخذه الأبناء على أنه « قضية مسلمه » . وكان الرئيس السادات يتندر بقصة لأحد أقاربه من ميت أبو الكوم كلما روى لابنه أنه كان يذهب إلى المدرسة ماشيا على قدميه فى الوحل وأنه كان يسمع الراديو فى شبين الكوم ؛ بينما ابنه يملك سيارة وتليفزيونا وتليفونا وثلاجة كان الابن يرد بقوله : ولكن كل الناس كذلك !

سألت الرئيس السادات إن كان يحب لابنه جمال أن يكون سياسيا . فظهر عليه الضيق والغضب قائلا : أبدا . . لقد أوصيت جيهان بألا تعمل هى فى السياسة أو جمال . . فالسياسة استعداد وممارسة . والظروف التى دفعت بى إلى ذلك . ليست هى الظروف التى يعيشها ابنى جمال . .

أى أن الرئيس السادات لم يكن راضيا عن صورته كرجل سياسى . وإن كان يرى فى نفس الوقت ، أن السياسة قد أعطته أكثر مما كان يحلم به . صحيح أنها أعطته ، ولكنها أخذت منه الكثير من راحة البال . وأنها مرغته فى السجون والمعتقلات ، وألقت به فى المقاهى وعربات النقل والهرب من بيت إلى بيت ومن مهنة إلى مهنة .

ومعنى ذلك أن صورته كما يراها ليست هى أحسن الصور . . وحتى إذا كانت أرفع الصور ، فهى ليست أجملها ولا أمتعها . وهو لذلك لا يحب لابنه أن يمشى فى نفس الطريق . وقال لى أيضا : إننى لو تركت له أن يعمل بالسياسة فإنه سوف ينفر منها . . كذلك يفعل

أبناء الأطباء والمهندسين . . إنهم لا يحبون أن يكون مستقبلهم على حساب آبائهم . . فيقال مثلا هذا الطبيب الشاب نجح لأن والده فلان . . وليس لتفوقه – أعوذ بالله إلا السياسة !

وقد رأيت الرئيس السادات مع أسرته كثيرا . ورأيت تعلق بناته به . ولكن الرئيس قال لى فى إحدى المرات : من بناتى واحدة تحبنى جدا ، وواحدة أحبها جدا . وهذه التى أحبها سوف أهدى لها كتابى « البحث عن السلام » . . أو الكتاب الذى حدثتك عنه ، وسوف أنشره فى مجلة « أكتوبر » عن الشباب وقضاياهم . . عن جيلى وجيل أولادى . وما الفرق وما السبيل ، وما العلاج . .

وقد سمعت من يقول للرئيس السادات فى احدى المرات : لقد تشاجرت مع فلان أمس . إنه لا يوافقك على رأيك فى سعر البترول الذى سوف تبيعه لإسرائيل . . وسأله الرئيس : ما الذى قاله ؟

– قال إن سيادتك قد اتخذت هذا القرار دون الرجوع إليه . .

– فماذا قلت له ؟

– قلت إن السيد الرئيس لابد أن يكون قد درس هذا الموضوع . . وإذا كان لم يرجع إليك أنت بالذات ، فهل ترى أنك على حق والرئيس على خطأ ؟

– فماذا قال لك ؟

– قال إن الرئيس على خطأ . . وسوف أقول له ذلك . وهذا واجبى . . وهو الذى يتخذ القرار فى

النهاية . وعاتبته على أنه قال هذا الكلام أمام عدد من الناس . . فلان وعلان . إنهم أناس لا قيمة لهم إطلاقا . وفى الليل سمعت هذا الكلام يتردد فى نادى الجزيرة ، وفى عشاء عند السفير الأمريكى . . ولابد أن تكون وكالات الأنباء قد تناقلت ذلك . . إنه لم يعجبنى عندما ادعى لنفسه هذه البطولة الكاذبة . . إلخ .

وقال الرئيس : ولكن هل تعلم أنه قد صارحنى بكل ذلك ، وأنا أحترم فيه شجاعته ، وهو لا يتردد فى إبداء رأيه فى كل مناسبة ، ولكن عندما شرحت له الخلفية السياسية لهذا القرار اقتنع تماما بكل ما قلته . . وهذا ما أتمنى أن أراه فى كل الذين يعملون معى . ليكن له رأى ، وليكن شجاعا . ثم يفعل بعد ذلك ما يريد . . لو فعل كل الذين يساعدوننى مثله لاسترحت . ولتقدمنا كثيرا جدا . .

وقد دارت فى إحدى المرات مناقشة عن شخصيات كبرى لم تتزوج ، أو لم توفق فى زواجها . ثم اقترحت أسماء سيدات فى المجتمع . على سبيل الدعابة . وكان رأى الرئيس السادات : أن الزواج أفضل . . ولكن إذا استطاع أحد أن يحقق التوازن النفسى بزواج دون أولاد فهذا أفضل كثيرا .

ثم التفت الرئيس السادات يقول لى : عندك أولاد ؟

فقلت : لا . .

وضحك ليقول : إذن فأنت أعقل الجميع . .

واستدرك قائلا : إننى أحمد الله . . أن رزقنى بأسرة يجمع بينها الحب والوفاق . . وليس ذلك قليلا .

وكان الرئيس السادات يبذل جهدا نفسيا وعقليا كبيرا لتبدو صورته فى العالم هادئا حكيما متسامحا حاسما . وكان الصحفيون العالميون يتفننون فى توجيه الأسئلة المثيرة والمستفزة له أيضا . مثلا سأله صحفى إسرائيلى بعد أن تخبطت محادثات تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل .

قال له : نفرض أنك مت اليوم ، فما هو مصير السلام ؟

والسؤال سخيف جاف قليل الذوق . ولكن صاحب السؤال يعرف ذلك . ويريد أن يعرف ما هو أكثر من الإجابة . يريد أن يعرف رد الفعل على وجهه وعلى أصابع يديه وحركة ساقيه وعينيه ثم كيف يجيب عن ذلك . ولابد أن الرئيس السادات قد بذل جهد هائلا ليخفى مشاعره . ثم اهتدى بسرعة إلى إخفاء ذلك فى ضحكة عالية . . وفى إدارة وجهه إلى الناحية الأخرى بحثا عن البايب . . ثم تركيز عينيه عليها وتنظيفها وحشوها وإشعالها ثم أجاب : لن يحدث شىء . . سوف يتولى حسنى مبارك رياسة الجمهورية ويمشى فى نفس الطريق الذى التزم به الشعب ومؤسساته الدستورية . ثم إن هذه الاتفاقيات لم تكن بينى وبين بيجين وكارتر . . إنما بين الشعوب . .

وقد أدرك الصحفى أنه كان مجافيا للذوق ، فاعتذر عن توجيه السؤال بهذه الصورة ، وقال للرئيس ما يعرفه : إنها المهنة يا سيادة الرئيس !

وكان الرئيس السادات يؤمن بالقضاء والقدر . . أى أنه يؤمن بأن الله قد هيأ له أن يكون شيئا من أجل

هدف . فالله لا يخلق شيئا أو أحدا عبثا . فلابد ان تكون هناك حكمة من اختياره من بين ملايين المصريين لمهمة خاصة فى التاريخ ، تاريخ مصر أو تاريخ العرب او العالم . وقد قال هذا المعنى للرئيس كارتر عندما التقى به لأول مرة . قال لكارتر : لقد بحثت عن قريتك هذه فلم أجدها فى أية خريطة !

وكان رد الرئيس كارتر : وأنا بحثت عن قرية ميت ابوالكوم فلم أجدها .

وقال الرئيس السادات : ولكن إرادة الله قد اهتدت إلينا ، وهدتنا ، ووضعتنا على الطريق التاريخى الطويل !

وقد كان الرئيس سعيدا جدا عندما أهدى إليه د . محمد عبد الهادى خريطة التقطتها الأقمار الصناعية للدلتا . . وأنه استطاع عن طريق تكبير الخريطة التى التقطت من ارتفاع ٥٠٠ كيلو متر أن يهتدى إلى موقع قرية ميت أبو الكوم . وكان كلما زاره أحد الأمريكان اشار إلى هذه الخريطة . . وبعث بنسخة منها إلى الرئيس كارتر . . ثم تلقى منه رسالة تقول : سوف أنظر إليها بوضوح عندما أمر فوقها بإحدى سفن الفضاء ، فأرجو أن تتذكر ذلك !

هل كان الرئيس السادات يعتقد أنه سوف يموت قتيلا ؟

إن بعض الذين يعرفونه جيدا يقولون : كان يتوقع ذلك .

ويؤيدون وجهة نظرهم هذه بالحكمة التى تقول : من قتل يقتل ولو بعد حين !

أى أنه ما دام الرئيس السادات قد قتل أمين عثمان شارك أو خطط لذلك ، وما دام السادات رجلا منا ، فقد كان يتوقع هذه النهاية !

وبعض الذين صارحوه بالمؤامرات والمحاولات لغتياله فى الأيام الأخيرة يقولون : إنه كان يتوقع لك . ويجدون لعباراته فى الأيام الأخيرة من حياته مثل هذا المعنى أو مثل هذه النهاية ! وخاصة ماقاله لسيدة جيهان السادات وما أوصى به إبنه جمال قبل أن يسافر إلى أمريكا ..

وأنا قد لاحظت مثل هذه المعانى فى مناسبات عديدة . مثلا عندما بدأت معه سلسلة من الأحاديث عن الشبان نشرت اثنين منها . وكان موعد الحديث الثالث فى وادى الراحة فى اليوم التالى لاغتياله . وكان الرئيس السادات يقول : سوف تكون هذه الأحاديث عشرة . وبعدها – إذا أعطانى الله عمرا – سوف تحدث عن الكتب التى ساهمت فى تكوينى العقلى .

وفى مناسبة أخرى كان يحدثنى عن كتابه « البحث عن السلام » ولم يكن الكتاب قد فرغ منه تماما .. فقد بعث به إلى د . رشاد رشدى لترجمته إلى اللغة الإنجليزية .. وطلب منى أن أبعث بعدد من الكتب ليستعين بها د . رشاد رشدى عند الترجمة . وقال لى الرئيس السادات : إن الفصل الأخير من الكتاب سوف اهديه إلى المستشار الألمانى هلموت شميت . فقد حدثته عن الإسلام والأفكار التقدمية فى الإسلام . ولم يكن شميت يعرف شيئا عن ذلك . وإذا أعطانى الله عمرا فسوف أقدم مختارات من آيات التوراة والإنجيل والقرآن هدتنى إلى السلام ، ولعلها

تهدى غيرى إلى السلام أيضا . . إذا أعطانى الله عمرا !

وقد راجعت الرئيس السادات فى ذلك فقال : طبعا . . إن الأعمار بيد الله . . فقلت : ولكنك يا سيادة الرئيس تسرف فى استخدام مثل هذه العبارات .

وكان يرد قائلا : إن الموت على رقاب العباد . . وقد يكون الموت من الهواء أو من الماء . . أو من توقف القلب . . فليس أسهل من الموت . . لقد أحسست عندما أصبت بالانفلونزا فى العام الماضى أن الدنيا قد خلت من الهواء تماما ، وأن الهواء الذى يدخل أنفى يدخل من ثقب إبرة مسدود . . لقد شاهدت فى التليفزيون أخيرا أن اللصوص هاجموا رجلا يتنفس صناعيا . . وكل ما فعلوه هو أنهم أدخلوا ثانى أكسيد الكربون فى الأنبوبة لبضع ثوان فمات الرجل . . وقرأت فى كتاب عن المخابرات السوفيتية أنهم ينفخون فى وجه أى إنسان بخاراً فيموت بالسكتة القلبية ! .

ولا أدعى أننى لا حظت شيئا غير عادى على الرئيس السادات . . ولا أعرف إن كان هذا شعوره ثم تمكن من إخفائه . . أو أن هذا هو منطقه العادى ونظرته الفلسفية للحياة والموت . .

وقد ولد الرئيس السادات مع جمال عبد الناصر فى عام واحد . . وكان بينهما ما بين نابليون وولنجتون اللذين ولدا فى عام واحد أيضا .

وولد معه المستشار الألمانى هلموت شميت والأديب الروسى سولجنستين الحائز على جائزة نوبل فى الأدب . .

وتوفى فى نفس العام الموسيقار الفرنسى ديبيسى والأديب الفرنسى ادمون روستان . .

وصدرت مسرحية « ٦ شخصيات تبحث عن مؤلف » للأديب الإيطالى براندللو . . التى اتخذها جمال عبد الناصر فى كتابه « فلسفة الثورة » تصورا دقيقا للضباط الأحرار وأفكارهم المشتعلة التى تحتاج إلى مؤلف يصوغها ، وكان جمال عبد الناصر هو هذا المؤلف !

وفى نفس السنة استخدم الأمريكان مرصد جبل ولسون لأول مرة . .

واستخدمت مدينة نيويورك علامات المرور ذات الثلاثة الألوان . .

واحتلت القوات البولندية مدينة بوزن . . وأعلنت مملكة يوغوسلافيا مكونة من كرواتيا وصربيا وسلوفينيا . .

وسافر الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون لمؤتمر الصلح فى باريس . .

واندهشت عندما أضاف الرئيس السادات إلى هذه المعلومات التى جعلته يفكر طويلا ، أنه فى هذا العام صدر كتاب الفيلسوف الإنجليزى رسل بعنوان « التصوف والمنطق » ثم قال : وليس أصعب من أن يكون الإنسان متصوفا وفى نفس الوقت منطقيا . .

وأنا عندما قرأت هجوم الإمام ابن تيمية على المتصوفين لم أسترح إليه . . فهو قد صور المتصوفين على أنهم جماعة من الدجالين والنصابين والمشعوذين ، ولذلك رفضهم . . ولكن هناك متصوفين اختاروا الزهد والذوق والمعاناة أسلوبا فى الحياة أو أسلوبا فى البعد عن الحياة !

وسألت الرئيس السادات : إن كان هو متصوفا أو ميالا إلى ذلك أو يحب أن يكون كذلك ؟ . .

فأجاب : لست متصوفا تماماً . . ومن الصعب أن أكون مسئولا ، وفى نفس الوقت منزويا أو منطويا أو مكتفيا بنفسى دون حاجة إلى الآخرين . . ولكن عندما أعتزل الحكم إن شاء الله فسوف أفعل ذلك – إذا أعطانى الله عمرا ! . .

ويوم التقى الوفدان المصرى والإسرائيلى حول تورتة عيد ميلاد الرئيس السادات فى الإسماعيلية ، قال له السيد مناحم بيجين : عقبال مائة وعشرين عاما يا سيادة الرئيس .

ضحك الرئيس السادات قائلا مائة وعشرون ؟ . . وهل مائة عام عمر قصير ؟! . .

وكان رد بيجين : إنها عادة عندنا نحن اليهود ، أن نتمنى لأى إنسان أن يعيش مائة وعشرين عاما ، أى مثلما عاش النبى موسى . .

والذين رأوا الرئيس السادات يقولون : إنه كان سعيدا لذلك ، كأنها أمنية ممكنة التحقيق . .

ولكن رجلا مثل الشهيد أنور السادات الثائر المصلح صانع الحرب داعية السلام والحب والتسامح قد أعطاه الله عمرين : عمرا جسديا انتهى بعنف خاطف يوم ٦ أكتوبر الماضى . . وعمرا تاريخيا هو عمر مصر والخير والسلام . .

يرحمه الله ، لم نعرف منه وعنه إلا القليل . . أما الكثير فهو الذى سوف تكشفه لنا الأيام . .

ومثل السادات ككل الأبطال فى التاريخ ، لا تعرفهم الشعوب إلا بعد أن يمضوا ، فمن عادة الشعوب أن تلتقط الثمار بعد سقوطها من أشجارها — فإذا سقطت انحنينا عليها لنرتفع بها ! . .

وليست هذه إلا جوانب من صورة السادات كما يرى نفسه . .